

الطلبة وإعادة إنتاج الإرث الاجتماعي من خلال وجهة نظر بيير بورديو و ج-ك-باسرون

يوسف صديق

أستاذ علم الاجتماع بجامعة محمد الخامس بالرباط

توطئة

في سنة 1964، أصدر الباحثان بورديو وباسرون، كتابا تمت عنونته بـ "الورثة"، وكان عنوانه الفرعي: الطلبة والثقافة^[1]. وقد اعتبر الكتاب مساهمة جادة للتغيرات التي يشهدها المجتمع الفرنسي آنذ، حيث أصبحت شريحة الطلبة تتنامى يوما بعد آخر، إلى حدود أن ظهرت "ما يمكن أن ندعوه بايديولوجية النقابوية الطلابية، التي كانت تنظر إلى الطلبة على أنهم جسم اجتماعي متماسك... بل كان هناك من يتحدث عن "طبقة الطلبة"، باعتبارها فئة لها مصالح مشتركة ووضعية موحدة"^[2]. وهذا ما جعل مجموعة من الباحثين يهتمون بالمجال الطلابي قصد إبراز واقع و حدود هذا الطرح السائد. من هنا تندرج إذن محاولة كل من بيير بورديو، و ج-ك-باسرون. يتجزؤ الكتاب إلى محورين أساسيين، يتوزع كل منهما إلى مجموعة من الفصول. فالجزء الأول يتكون من ثلاثة فصول معنونة بالترتيب، كالآتي: اختيار المختارين. ثم لعبة جدية ولعب المجدين، وأخيرا: مبتدؤون، ومبتدؤون راقون. ثم خلاصة للمحور الأول. ثم المحور الثاني ويتشكل من فصلين: الأول حول الطلبة بفرنسا، ثم بعض الوثائق ونتائج البحوث. وما يهمنا من هذه القراءة، هو المحور الأول والذي يتميز بالنقاش النظري للمعطيات الميدانية ومحاولة تحليلها. وقد شمل البحث عدة مدن جامعية فرنسية، انطلاقا من مواضيع مرتبة على الشكل الآتي:

- الطلبة ومحاولات المعرفة

- الطلبة أمام امتحاناتهم

- السعي نحو الاندماج لدى الطلبة

- الهواية عند الطلبة

- "الطالب" من وجهة نظر الطلبة.

إن الفكرة الجوهرية للكتاب، تتركز في اعتبار أن التعليم العالي، يعكس خريطة التمايزات الطبقيّة الموجودة داخل المجتمع الفرنسي، وبالتالي فالجامعة هي صورة طبق الأصل لما يعيشه "العالم

الاجتماعي" من هيمنة الطبقة البورجوازية على الانتاج المادي عبر وسائل الانتاج، وهيمنتها كذلك على الانتاج الرمزي والذي تعتبر المدرسة أهم وسائله.

- من يلج الجامعة الفرنسية؟

توضح المعطيات التي يقدمها الكتاب على شكل جداول احصائية، هيمنة أبناء الطبقات العليا على الجامعة الفرنسية، أ ثيحن إطار عالي مثلا، يمتلك حظوظا أوفر ب 80 مرة من حظوظ ابن الأجير الفلاحي، لولوج الجامعة، وهي أوفر ب 40 مرة من حظوظ ابن عامل. فأبناء الشرائح الفقيرة، لا يملكون إلا حظوظا رمزية لولوج الجامعة (5% من الحظوظ). وتماشيا مع التطور الحاصل داخل المجتمع، والذي يخلق أحيانا تطورات فجائية، في مكانة بعض الشرائح والفئات، وهكذا فقد تتامت حصة بعض الشرائح المتوسطة (مستخدمين، صناع تقليديين وحرفيين، تجار...) في تسجيل أبنائها بالجامعة. حيث أصبحت تمتلك ما بين 10 إلى 15 حظا من بين 100. وبالمقابل عرفت فرص الأطر المتوسطة، تضاعفا وصل إلى 30% وكذلك الأطر العليا وأصحاب المهن الحرة (60%) تقريبا.

وهكذا، فأبن الإطار العالي، يتمثل التعليم العالي، كتوجه عادي في حياته اليومية، حيث يفرض الجو الأسروي للعائلات البورجوازية، نقاشا من هذا النوع، في حين لم ينعم ابن العامل العادي بفرصة التعرف على الجو العام للدروس الجامعية، هكذا تبقى معرفته بالطلبة كمجرد أشخاص، والجامعة بالنسبة إليه مكان للعبور وتسلق السلم الاجتماعي. ونفس التمايز يوجد على مستوى الجنسين، والذي يعكس خريطة التمايزات الاجتماعية، فإذا كانت الفتاة من أصل فقير، تمتلك 8 فرص لولوج الجامعة، فإن الذكور من نفس الطبقة، يملكون عشرة فرص. وتميل هذه التمايزات إلى الاختفاء داخل شرائح الأطر العليا والمتوسطة. وتتميز الإناث حسب إحصائيات (الورثة) بالميل أكثر نحو الشعب الأدبية، في حين يميل الذكور نحو الشعب العلمية. وحتى سن التمدرس لم يخل من قاعدة الأصل الاجتماعي، فهو يتميز بارتفاعه لدى أبناء الفئات الأكثر فقرا. إلا أن الأصل الاجتماعي بالنسبة للباحثين، يبقى هو المحدد الأساسي، والأكثر تأثيرا على رسم الخريطة الطلابية، أكثر من الجنس، السن، أو أي عامل آخر كالانتساب الديني مثلا...

- الأصل الاجتماعي وهندسة الفضاء الجامعي

هناك ارتباط واضح، بين النجاح المدرسي (الجامعي) والإرث الثقافي واللغوي الذي يملكه الطالب، والذين يرتبطان بدورهما بالوضع الاجتماعي. إلا أن هذا لا يمنع الباحثين، من البحث عن العلاقات التي تربط مستويات أخرى، وهكذا يستنتج الباحثان، وجود علاقة بين فرص الانتماء السياسي أو النقابي، التي تتضاعف مع ارتفاع السن، وامتلاك الطالب لسكن مستقل، وولوجه لعمل خارج إطار الدراسة. ولا يخلو

الوسط الطلابي من استراتيجيات يخضع لها الطلبة، فالطالب الذي قضى وقتا أكثر داخل هذا الوسط، يمكن أن يحيل إلى ميزة الطالب السرمدى أو الخالد، كما يمكن أن يعني في نفس الوقت، عجزا اجتماعيا. إن أكبر معبر عن الهيمنة الطبقيّة التي تمارسها البورجوازية على الجامعة الفرنسية، هي حقل الممارسات الثقافية، التي ترسم لنا واقع التمايز في الأذواق والأفكار والمعطيات على حد سواء. ويلاحظ الباحثان، كون الطلبة من أصل فقير يتساوون في ثقافتهم حول المسرح الكلاسيكي مع أبناء الأطر العليا، ويرجع ذلك بالأساس إلى كونه يدخل في إطار المقرر الدراسي للتعليم الأساسي والثانوي. إلا أن هذا التساوي لا يعني نفس الشيء في القدرات أو الفعالية أو القيمة بالنسبة إليهم. فهذا النوع من المسرح إن كان يمثل بالنسبة للبعض، رغبة في الاطلاع والمعرفة كهواية بالأساس، فإنه يمثل بالنسبة للبعض الآخر فرضا مدرسيا، يتم من خلاله معرفة ثقافة تدين بشكل كبير لنفس أصولهم العائلية.

أما بالنسبة للمطالعة فيتضح أن الطلبة أبناء الطبقات العليا، تسعفهم مطالعاتهم خارج إطار المقرر الدراسي، في خلق مكانة هامة ومحترمة، إضافة إلى كون التعبير عن الذات، بالنسبة لهذه الشريحة، يتميز بالشجاعة في إبداء الرأي، خاصة في الامتحانات الشفوية. من هنا يستخلص الباحثان وجود تمايزات في قابلية كل طالب لاكتساب المعرفة. وهي تعود بالأساس إلى الجذور الاجتماعية التي ينتمون إليها، مما يجعلهم لا يتساوون إلا شكليا في اكتساب ثقافة عالمية أو "ثقافة المدرسة"، من تم تجلي التوزيع اللاديمقراطي الذي تمارسه المدرسة... فرغم وجود عراقيل مادية، قد تحجز الطالب عن القيام بمطالعات حرة، فهي لا تمثل كل شيء، اعتبارا أن هناك عامل أساسي محدد، هو عامل الإرث الثقافي، الذي ينسجم مع الإرث الاجتماعي. "إن أبناء فئات محددة هم الذين يتمكنون من نسج علاقة متينة مع السوق الثقافية والإنتاج الثقافي، وذلك ببسر كبير، حتى دون أن يكونوا يقصدون ذلك: فهم وبحكم العادات والسلوكيات التي تنضبط لها عائلاتهم، يجدون أنفسهم ومنذ نعومة أظافرهم يزورون المتاحف وينصتون للموسيقى الراقية بمختلف ألوانها، ويقرأون ما طاب لهم من الكتب مستفيدين من مكتبة العائلة المتوارثة في أغلب الأحيان." [3]

- الطالب وحياة الطلبة:

يمتلك الطالب، من خلال ما قدمه الباحثان، تمثلا اتجاه الجامعة والحياة الطلابية داخلها وهذه التمثلات بدورها تخضع للتوزيع الاجتماعي السائد داخل المجتمع. إن "الطالب" كما يتمثله الطلبة الفرنسيون في بداية الستينيات، هو الحرية المطلقة، التي لا تخضع حياتهم الجامعية بواسطتها، لوقت صارم للعمل أو هامش محدد سلفا لممارسة الهوايات! فالشباب الجامعي حسب أغلب الآراء المعبر عنها، ليس كجميع الناس، إنه يذهب إلى السينما وقتما شاء، بل وليس "الأحد" بالضرورة، لأنه يوم الموظفين المعتاد لولوج السينما أو المراهقين. هكذا تصبح مجموعة من التقابلات بالنسبة إليه تحمل دلالات مختلفة: الليل 1 النهار، الأسبوع 1 نهاية الأسبوع (Week end). إن هذا القوس الذي تفتحه الحياة الطلابية،

"الطلبة"، يجعلهم في مواجهة مؤقتة مع وتيرة الحياة العائلية أو المهنية. ورغم ابتعاد الحياة الطلابية عن بعض العادات الاجتماعية، بشكل مباشر، اعتباراً من كونها تمتلك بعض سمات المؤسسة، فإن الوسط الطلابي رغم ذلك، يظهر أقل اندماجاً من ذي قبل. هكذا تنخر التمايزات هذا المجال، عبر اختلافات من قبيل أدبي 1 علمي، ثم الانتماء المشترك لنفس الكلية، الفوج الذي ينتمي إليه الطالب، ونسبة القدم بالكلية... وكلها تخلق مشروعات متعددة تعزل كل مجموعة في فضاءها الخاص. وهذا ما ينتج عنه، ضعف احتمالات تعارف طلبة من شعب وتخصصات مختلفة (خاصة في باريس). ويلاحظ الباحثان أن دوافع التعارف بين الطلبة، تبقى محصورة بين علاقة مدرسية قديمة، أو علاقة اجتماعية خارجية، كالأصل الجغرافي المشترك، الانتماء الديني أو السياسي، وعلى الأخص الانتماء المشترك للطبقات الاجتماعية الميسورة، داخل هذه الأخيرة ترفع معدلات التعارف. يترتب عن ضعف الاندماج هذا، ضعف على مستوى تناقل المعلومات التقنية والمعرفية عموماً. وهكذا، وانطلاقاً من بحث أقيم بمدينة "ليل" الفرنسية، يلاحظ الباحثان أن ثلاث أرباع (3/4) الطلبة الذين يلجون المكتبة، توجههم آراء أساتذتهم إلى كتب معينة، أكثر من آراء رفاقهم نفس الشيء يقال عن التخصص الذي يختاره الطالب... كل ما سبق يجعل الباحثان يشكك في كون الطلبة يشكون شريحة اجتماعية متجانسة، مستقلة ومندمجة. "فالوسط الطلابي إذن، وسط متنافر، ويجب البحث عن أصل هذا التنافر في الأصول التطبيقية للطلبة"^[4].

من هنا يشدد الباحثان على كون سوسيولوجيا شريحة معينة، لا قاسم مشترك لأفرادها، غير ممارستهم الجامعية التي تتميز بدورها بألف طريقة انطلاقاً من تمايز الأصول الاجتماعية، هذه السوسيولوجيا لا يمكن إلا أن تكون حالة خاصة من سوسيولوجيا اللاتكافؤ المدرسي والثقافي (وهنا يجب تحديد تلك الخصوصية). وهذه النظرة هي التي تؤسس عموماً، لمجمل النسق الذي يدافع عنه بورديو، انطلاقاً من دراساته المتعددة للحقل الثقافي. إن التمايزات التي تعترى الجسد الطلابي، سواء من حيث شروط العيش، أو حظوظ النجاح، لاتمنع من الاشتراك، على الأقل، في إرادة التحقيق، وذلك بشكل جماعي أكثر منه فردي. فالوقود التاريخي للطلاب يتشكل انطلاقاً من تحقيقه لهويته الفردية، التي تبعده عن البحث عن نموذج معين، دون أن يسقط في الابتذال والعبثية في حياته اليومية.

يتوقف الباحثان، لينبهاننا، إلى نقطة منهجية هامة، وهي كون الباحث، لا يجب أن ينساق مباشرة مع الصورة التي يحاول الطالب رسمها لنفسه، من حيث أن كل طالب يحاول أن يقدم النموذج الحقيقي، ويحاول بالتالي أن يكون محط اختيار الغير أو ناطقاً رسمياً للفئة الطلابية "Porte-Parole". وفي هذا الإطار تندرج كل الأشكال الرمزية التعبيرية (لباس، مظهر عام...). يسرد الباحثان مجموعة من مميزات الطلبة والتي قد تنفلت أحياناً من المحدد الأساسي للسلوك الطلابي، أو تتعالى عليه. ومن ضمن هذه المميزات، أن الطلبة في الغالب، يحاولون تفادي الإشارة إلى أصولهم الاجتماعية أو إلى عاداتهم وسلوكهم المرتبط بتلك الأصول، باعتبارهم يحاولون التمييز بالعلاقة الثقافية التي تربطهم بالطبقة المثقفة، التي

يحاولون إعادة إنتاج آلياتها، في إطار ما تسمح لهم به، شروط الحياة الطلابية. ومن المميزات كذلك، كون الطلبة يحاولون باستمرار، خلق قطيعة مع المرحلة الثانوية، وذلك بانخراطهم في نادي سينمائي، أو اقتناء أشرطة وأجهزة سمعية، تزيين الغرفة بالصور المفضلة، ثم محاولة اكتشاف بعض الأشكال والرموز الأدبية والسينمائية.

بتواجهه داخل إطار ثقافي-فكري، يتأثر الطالب بشخصية أستاذه، من حيث كون هذا الأخير يوجه إليه قيمة جديدة، وترتفع نسبة التأثير بارتفاع نسبة تجرؤ الأستاذ على بعض المناهج التربوية العتيقة أو بارتفاع مستوى ثقافته العامة. إن الأستاذ من هذا النوع هو النموذج الذي يرسمه الطالب لتحقيقه مستقبلا. يستخلص الباحثان أن الاندماج لا يخلقه الفضاء المجرد، بل يخلقه الاستعمال المنظم والمنتظم داخل زمن محدد، لهذا الفضاء.

يتساءل الباحثان عن أسباب المد اليساري الكبير داخل الجامعة الفرنسية (خاصة باريس)، رغم أنها تحتوي على نسبة هامة من أبناء الطبقة البورجوازية، ويردان ذلك إلى كون الطلبة يحاولون دائما أن يظهروا بمظهر الاستقلال السياسي اتجاه أسرهم. فالتعبير عن رفض السلطة الأبوية يعبر عنها بالاختيار المضاد لاختيار الأبوين السياسي أو الإيديولوجي عامة. إن لعبة الاندماج التي يمارسها الطلبة فيما بينهم، لا يجب أن تخدع الباحث لكونها موجهة بالأساس (عن طريق المبادلات الرمزية بينهم) إلى خلق صورة مدمجة للطلبة، علما بأن تلك العملية في مجملها لها هدف واحد وهو تقوية ذلك الاندماج نفسه.

اعتبارا من الباحثين، أن المحدد الرئيسي للممارسة الطلابية، إذن، هو الأصل الاجتماعي، وأن الطلبة المنتمون إلى عائلات بورجوازية هم الأغلبية، وأن القيم التي استقوها من أصولهم تستمر في الفرض عليهم وبواسطتهم على باقي الطلبة، فإن الوسط الطلابي مدين إذن، وبشكل موضوعي في جل مواصفاته، إلى الجماعة المهيمنة عدديا وموضوعيا داخل الجامعة. ولا يعني ذلك أبدا، أن محدودية عدد أبناء الطبقة البورجوازية داخل الجامعة، يفي القيم والممارسات التي رسخوها داخل هذا الوسط، حتى مع الشرائح التي جدت على الساحة الجامعية.

- الطالب وجدية الحياة الطلابية!

إن التعامل مع التجربة الطلابية وتمثلها، يخضعان بدورهما لمعيار الأصل الاجتماعي، على اعتبار أن للجامعة عالم متعدد التظاهرات، فهي إن كانت بالنسبة للبعض مكانا لتسلق السلم الاجتماعي عبر ولوج وظيفة مباشرة بعد الحقبة الطلابية، فإنها لا تعدو أن تكون، بالنسبة للبعض الآخر، مكانا لاكتساب التجربة أو الانفصال عن الجو الأسروي "الروتيني". فالطالب البورجوازي يرى في المرحلة الجامعية مسارا تجريبيا لا يجب تلغيمه "بالمشاكل الجدية" التي تميز "عالم الكبار"! في حين يهيمن الخوف والقلق المستمر من المستقبل القريب، على تمثل أبناء الطبقات الدنيا للحياة الطلابية. ويرجع ذلك في نظر

الباحثان إلى كون الأصل الاجتماعي الفقير، لا يوفر للطالب امكانية التفكير الواقعي والعقلاني اتجاه مستقبله وبالتالي اتجاه مرحلته وحياته الطلابية.

إن الطالب ذو الأصل الاجتماعي الفقير، يجد في الجامعة مكانا لتسلق السلم الاجتماعي أكثر مما هي مكان لتعميق التجربة الشخصية أو تطوير المدارك الفردية. هكذا فالمنطق والعقلانية التي يجب أن يحكما الحياة الطلابية، في نظره، هو أن تسخر وقتك الراهن لمتطلبات الحياة الوظيفية مستقبلا، وأن تضع كل القدرات العقلية لتحقيق هذا الهدف بشكل متقن وفي أقل وقت ممكن.

- خلاصات ونتائج:

يستخلص الباحثان مما سبق أن تجاهل التمايزات الاجتماعية، دفع البعض إلى تفسير الفروقات، خاصة النجاح المدرسي، باعتبارها تمايزات طبيعية أو اختلافات في المواهب الفردية. من هنا، وجدت الطبقات، المتمتعة بامتيازات من هذا القبيل، في هذه الايديولوجيا التي يمكن تسميتها كاريزمية (مادامت تحلل بالعطاء والموهبة)، خطابا لشرعنة تلك الامتيازات الثقافية، التي تحولت من إرث اجتماعي إلى "مواهب فردية" أو "مقابل لمجهود شخصي مضني"! من هنا يدعو الباحثان، إلى نهج طابع ديمقراطي في التعليم (المدرسة) وذلك بضم كل الشرائح الاجتماعية، خاصة التي لم تستفد من إرث اجتماعي وبالتالي ثقافي يذكر.

وهذه المعطيات الواردة في "الورثة"، استندت تحليلا نظريا معمقا، صدر في كتاب ثان سمي ب "إعادة الإنتاج" La Reproduction والذي طور فيه الباحثان ما سمي ب نظرية "العنف الرمزي"، حيث تعيد المدرسة إنتاج، وبشكل تعسفي الهيمنة الطبقية لشريحة اجتماعية، بتحويل هذه الأخيرة، احتكارا رمزيا بعد أن كان ماديا، للعالم الاجتماعي، وتهميش أبناء الطبقة الفلاحية والعمالية رمزيا بعد أن همشت ماديا (=اجتماعيا). وهكذا يغيب البعد الإنساني الديمقراطي الذي يجب على المدرسة أن تلعبه، بولوجها عالم الصراع، وشرعتها للطرف الأقوى في حلبة ذلك الصراع!

- حدود "الورثة" ومحدودية الإرث الاجتماعي:

أصبح كتاب "الورثة" منذ صدوره 1964، محط نقاش عريض داخل فرنسا وخارجها، سواء في إطار سوسيولوجيا الشباب أو في إطار سوسيولوجيا التربية. فهو من حيث مناقشته وتحليله للممارسات والمواقف الطلابية الناتجة عن أصولهم الاجتماعية، فإنه يقدم نقدا، ضمنيا أحيانا، ومباشرا أخرى، للمناهج التعليمية والبيداغوجية التي طبعت فرنسا.

ورغم كون هذا الكتاب عبارة عن معطيات وإحصائيات طبعت الجامعة الفرنسية، فإنه لا يكتمل إلا مع كتاب "إعادة الإنتاج" 1970، والذي عمق النقاش حول الاشكالات المطروحة في "الورثة"، واستطاع بذلك التأسيس لنظرية "العنف الرمزي".

إلا أن انطلاق "الورثة" من محدد أساسي (الأصل الاجتماعي) لفهم النظام التعليمي ككل، جعله يسقط أحيانا في نزعة قسرية، تذكرنا ببعض الكتابات المؤسسة للسوسيولوجيا، كما هو حال أوغست كونت.

لقد تعرض كتاب "الورثة"، خاصة في الأوساط الفرنسية، لانتقادات واسعة، وخاصة من طرف السوسيولوجيين الذين اهتموا بمجال الشباب أو مجال التربية عموما. وكان من أهم تلك الانتقادات، انتقاد السوسيولوجي أوليفي كالون، لمجمل النسق البوردوي (=بورديو)، واعتبر كالون أن التصور الذي يقدمه بورديو، يندرج ضمن السوسيولوجيا "الموضوعاتية" (Objectiviste) إلى جانب ميشيل بيبالو M. Pialoux والذين يحاولون أن يوضحوا أن "المعيش" يتم انتاجه من خلال شروط موضوعية محددة. من هنا ظلت مسألة التمايزات الطبقيّة مهيمنة على التحديدات التي يقدمها رواد هذه النزعة، حول الشباب إلى حدود الثمانينيات، حيث فتح نقاش عريض بفرنسا حول هذه المسألة، خاصة في أعداد مجلة "شباب ومجتمعات" [5].

وبعد تقديمه لوجهة نظر "الورثة"، يقدم كالون نقدا هاما لهذا الأخير، في كتابه "الشباب"، متسائلا على الشكل الآتي: إذا كان بورديو وباسرون قد حاولا تحديد وتفسير الوسط الطلابي، انطلاقا من محدد الأصل الاجتماعي، فما الذي جعل، إذن، الشريحة الطلابية البورجوازية (وهي الغالبية)، التي أمنت مستقبلها، والتي لم تول اهتماما بالغا بـ "الهوية الطلابية"، تثور وتحاول قلب الجامعة والمجتمع الفرنسي ككل، سنة 1968؟ يقدم كالون نفسه، إجابة على هذا السؤال، واضعا بذلك "الورثة" أمام حدوده الزمنية، حيث يدرج إحصائيات توضح أن الجامعة التي تحدث عنها بورديو وزميله، قد ولت في أواسط الستينيات، وفي هذا الإطار أوضح رايون بودون، أن الانسجام الذي كان قائما بين الجامعة والنظام الاجتماعي، قد تحطم بواسطة تضاعف عدد الطلبة وبواسطة التغيير السريع الذي طرأ على المكون الاجتماعي للجامعة. ويشير كالون إلى أن نسبة زيادة الطلبة في عشر سنوات أي ما بعد 1950، تقدر بـ 120%، ونسبة زيادتهم في ثلاث سنوات (1961-1965) تقدر بـ 50%. وهذا ما يفسر أن تلك الغالبية البورجوازية في المجال الطلابي، قد خضعت لتغيرات، هي نفسها تقريبا التغيرات الحاصلة في المجتمع الفرنسي ككل. [6]

وإذا كان كالون يتفق مع بورديو وباسرون في كون شريحة الطلبة والشباب عموما، لا يشكلان طبقة منسجمة، إلا أنه لا يفسر ذلك انطلاقا من محدد الأصل الاجتماعي كما فعل "الورثة". فهناك، حسب كالون، ثلاث متغيرات أساسية تتحكم في عدم الانسجام الحاصل لدى الشباب، في مواقفهم الأيديولوجية والسياسية وهي: العمر، الجنس والأصل الاجتماعي، ثم وضعية الفرد اتجاه سوق الشغل. [7] وانطلاقا من

البحث الذي قام به، استخلص أن تأثير الأصل الاجتماعي في ارتباطه مع الجنس، يبقى ضعيفا، على المواقف الايديولوجية لدى الشباب.^[8]

من زاويته، يرى فرانسوا ديبي (F. Dubet)، أن الطلبة لا يتحددون فقط بأصلهم الاجتماعي كما ورد في "الورثة"، ولا حتى بما تخوله الجامعة بالنسبة إليهم من فرص الشغل، ولكنهم يتحددون انطلاقا من العلاقة التي يشكلونها مع دراستهم، وداخل هذه الأخيرة يجب تحديد أسس الهوية الطلابية ومسار تجربة الطالب داخل الجامعة.

إن هذا الطرح "البنوي" الذي يقدمه فرانسوا ديبي، يؤسس الحياة الطلابية على ثلاث ميكانزمات رئيسية وهي: الاندماج الطلابي، الموهبة الفردية للطلاب، ثم المشروع الذي يطمح الطالب إلى تحقيقه.^[9] إن النموذج المثالي الذي يقدمه "الورثة" والذي بدأ يهتز مع بداية الستينات نفسها، يوضح لنا مقدار الاختلافات التي أصبحت تسم الصورة العامة للحياة الطلابية، والتي أصبح بفضلها الارث الاجتماعي (=الثقافي) مجرد وجه من أوجه عديدة تسم التجربة الطلابية اليوم. ونفس الخلاصة يصل إليها كالون حول الشباب، حيث يرى أن تمركز هذا الأخير، في وسط تعليمي (المدرسة عموما)، لا يمكن أن ينتج إلا ممارسات وأذواق خاصة بهذا الوسط.^[10] هكذا يستنتج جورج فيلوزي G. Felouzis، أن المطالعة مثلا، لدى الطلبة، لا تنبني على طبيعة أصولهم الاجتماعية ولا على إرثهم الثقافي، بقدر ما ترجع بالأساس إلى مسألة ذوق أولا وقبل كل شيء، الذي يتأسس بدوره في إطار الدراسة وبموازاة معها.^[11] ولا يعني القول السابق، نفي فيلوزي لتأثير الأصل الاجتماعي على تشكيل صورة الحياة الطلابية، غير أنه يحاول أن يقدم دراسة شمولية لهذه الأخيرة، من حيث أن تمثل الواقع لا يرتبط في كل الأحوال، موضوعيا و"سببيا" بالأصل الاجتماعي، خاصة لدى شريحة الطلبة. وباستثناء الرأي الأخير الذي دافع عنه فيلوزي، فإن بعض الانتقادات الواردة فيما سلف، حاولت أن تقدم لنا الحياة الطلابية كحياة مستقلة عن العالم الاجتماعي، وفي هذا الصدد ترى الباحثة رحمة بورقية أنه داخل مجال الجامعة، فإن الطلبة يوظفون الاستراتيجيات التي يوفرها النسق الاجتماعي،^[12] إن الطلبة بهذا التحديد، بنية مفتوحة على العالم الاجتماعي.

بدورهما يقدم، لنا كل من لابيروني ولوي ماري في كتابهما الجاد حول الطلبة^[13]، تصورا متكاملا للوضع الحالي للحياة الطلابية، خاصة داخل فرنسا، وينبني تصورهما على نقد الأطروحة التي قدمها بورديو وباسرون في "الورثة". وإن كان كتاب لابيروني يصنف أكثر ضمن الكتابات الصحفية، إلا أنه يمتلك بعدا تحليليا مهما للحياة اليومية للطلبة.

ويرى هذان الباحثان، أن الجامعة التي كانت تخلق عالما للطلاب يحس فيه بأنه محمي تطبعه في ذلك علاقة حميمية مع الفئة المثقفة، قد ولت، وأصبح الطلبة اليوم، يتميزون بطموحاتهم نحو ضمان المستقبل وتحقيق الذات، أكثر من أي عامل آخر.

إن الباحث في الوضع الطلابي اليوم، سيلحظ بجلاء، التقدم الهائل الذي وصلت إليه، سوسيولوجيا الشرائح الاجتماعية، وهذا ما تعبر عنه البحوث التي أجريت على فئة الطلبة، ومن يقرأ بتمعن كتاب لابيروني ولوي ماري، سيسجل التغير الحاصل في الحياة الطلابية بالمقارنة مع زمنية "الورثة"، نفس الشيء يقال عن كتاب آخر، وإن اختلفت شروطه المجالية، عن سابقه، وهو الكتاب الذي أنجزه سوسيولوجيون مغاربة في الأونة الأخيرة حول الطلبة المغربية.^[14] فالكتابان معا، يطلان من منظور مشترك البانوراما الطلابية سواء داخل فرنسا أو المغرب. إن مقارنة الكتابين لا تعني بالضرورة التطابق بين مستويات وطرق التحليل. هكذا يرى لابيروني وزميله أن بقدر ما يتقدم الطالب في مساره الدراسي، بقدر ما يطور صورة خاصة عن نفسه^[15] مقدما بذلك نقدا "للورثة"، باعتبار هذا الأخير تحدث عن "الجامعة التقليدية"، حيث كان مستقبل الطالب، يبتعد عن حاضره، وهذا ما يجعله يخلق عالمه الخاص، في انعزال عن آليات المجتمع العام. لقد انقلبت صورة الطالب تماما، عما ذكره بورديو وباسرون، فالطالب، أصبح يعقلن حياته داخل الجامعة، هكذا أصبح يهتم أكثر بالحياة الخاصة والتي غالبا ما تتأطر خارج الجامعة، بدءا بتنمية المدارك الشخصية، وصولا إلى محاولة الاحتكاك بعالم الوظيفة، وهذا ما يعتمد عليه الباحثان في استنتاجهما أن الثقافة الفرعية التي كان الطلبة يخلقونها في الوسط الجامعي، قد اندثرت عن كاملها.^[16]

طرح كتاب "الورثة" على السوسيولوجيين المهتمين بالحقل التربوي أو الطلابي على حد سواء، مهمة توضيح الخصوصيات التي تشوب هذين الحقلين، في بلدانهم. وهكذا فرض "الورثة" بشكل مباشر أو غير مباشر منذ 1964، على هؤلاء الباحثين مناقشة الوضع الطلابي وعلاقته بالنسق الاجتماعي ككل. وحتى لا يظهر تقديم "الورثة" مجرد تحصيل حاصل أو بحث في أمور لا تعنينا، فإننا على ضوء النقاشات التي أثارها الكتاب، سنتطرق إلى الاجابات التي قدمها بعض السوسيولوجيين خارج أسوار الجامعات الفرنسية كما هو الحال بالنسبة للوسط الطلابي المغربي مثلا.

إذا كان "الورثة" يشير إلى الاقصاء الاجتماعي الممارس داخل المدرسة، ضد الفئات المحرومة، فإن ادريس بنسعيد يشير إلى ظاهرة الاقصاء الدراسي والتربوي السائد في النظام التعليمي المغربي، مضافا إلى الاقصاء الاجتماعي ومعبرا عنه أحيانا، حيث أن "ولوج التعليم العالي يبقى امتيازاً كبيراً، لقلة من الشباب المغربي الذي نجح بطريقة أو بأخرى في تجاوز العراقيل التي يضعها النظام التربوي"^[19]، إلى حدود أن الطالب الذي أفلت من مخالب الاقصاء المدرسي والجامعي وحصل بالتالي على الاجازة، فإنه يعتبر نموذجا أو "نمطا مثاليا" إذا ما كان ينتمي إلى وسط اجتماعي متواضع!

لم تستطع المؤسسة الجامعية بالمغرب، أن تفرض شروط عيش طلابية أو عالما طلابيا بهذا التحديد أو "المرحلة الطلابية" « The studentry phase » كمرحلة انتقالية بين المراهقة وسن البلوغ، باعتبار أن الطالب لا يتمكن من مزاوله أنشطة فنية أو رياضية تدفعه إلى الإحساس بالانتماء إلى شريحة الطلبة،

وهذا ناتج حسب الباحث نفسه، إلى اقتقاد الجامعة المغربية إلى بنيات تحتية خاصة بها. وهكذا فإنها (الجامعة) لم تنجح في إنتاج ثقافة وقيم خاصة بها، يمكنها أن تجعل الممارسة الطلابية منسجمة، على الرغم من كون الفضاء الجامعي، يفرض على الطلبة، تقاسم نفس شروط العيش تميزهم عن باقي الشباب من نفس العمر^[20]. تثير هذه المسألة نقاشا واسعا، من حيث ما يقصده الباحث بمفهوم "الثقافة"، خاصة إذا علمنا المسار التاريخي الذي قطعه الوسط الطلابي المغربي، والذي وإن لم يكن ينتج ثقافة بالمعنى الأكاديمي للكلمة، فإنه أنتج ولازال ثقافات بالمفهوم الشعبي أو اديولوجيات أثرت بشكل كبير على الحقل السياسي المغربييرمته. وهذا ما جعل البعض ينعث الوسط الطلابي في فترة السبعينات والثمانينات، ببرلمان الظل للأحزاب المعارضة. إن هذه الديناميكية التي وسمت الحقل الطلاب. و حتى إذا لم يستطع الطلبة خلق نمط عيش طلابي أو عالم طلابي، باعتبارهم لم يعودوا ينتجون ثقافة فرعية على حد تعبير لابيروني ولوي ماري، فإن ذلك يرجع أساسا الى أن الطلبة يشكلون قلة قليلة من بين باقي الشباب، إضافة إلى التغيرات التي حصلت في الآونة الأخيرة في هذا المجال، باعتبار أن علاقة الطلبة اليوم بالجامعة هي علاقة نفعية ومصالحية محضة وهذا ما يجعلهم تمثلونها كطريق عبور لا يجب أن يستنزف مجهود الطالب، باعتبارها لم تعد تحقق تطلعاتهم، ولم تعد بالتالي تحضى بثقتهم.^[22]

إذا كان أوليفي كالون قد اقتنع أن الثقافة الشبابية (ثقافة الشباب) (علما بأن هذه الأخيرة في نظره ليست سوى تبني النموذج الطلابي وإعادة تحديده وإدخال بعض التغييرات عليه) تندرج في إطار إعادة توجيه نسق القيم نحو مواضيع التغيير الثقافي والتحديث،^[23] فإن التركيبة التي يخضع لها المجتمع تؤثر على تكوين وإنتاج الممارسات الطلابية : فالطبقة والأيديولوجيا مثلا، كلها عوامل تتداخل لتفسر لنا تمثلات وممارسات الطلبة داخل الفضاء الجامعي وهي نفسها خلاصات لابيروني وماري لوي، عندما يشيران إلى كون الاستراتيجيات الثقافية المنتجة اليوم داخل الجامعة الفرنسية انساقت مع موجة الفردانية والبراغماتية بخلاف الفترة التي تحدث عنها الورثة. وهذا ما يفسر بامتلاك المجتمع لمؤسسات أخرى تكتسح رياحها حقل الجامعة إن لم تكن تؤسسه وتعيد إنتاجه من جديد على نحو يضمن تطابقها مع الاستراتيجيات الثقافية للمجتمع العام.

هوامش

- [1] P. Bourdieu et J.C. Passeron, Les héritiers. Les étudiants et la culture. Paris, édit Minit, 1964.

[2] محمد المحيظ ونور الدين الزاهي: "المدرسة، البيداغوجيا وإعادة انتاج العنف الرمزي" مجلة الجدل - عدد 7، صفحة: 47

[3] محمد المحيظ ونور الدين الزاهي: المقال نفسه - صفحة: 48

[4] محمد المحيظ ونور الدين الزاهي : المقال نفسه - صفحة : 47-

[5] O. Galland, Sociologie de la jeunesse, Paris, édit: Armand Colin 1991, P: 53

[6] O. Galland, Les jeunes, Paris, édit: La découverte, 1990, p:44

[7] O. Galland, Sociologie de la jeunesse, op.cit, page: 185

[8] O. Galland, Ibid, page: 177

[9] François Dubet, Dimension et figures de l'expérience étudiante dans l'université. Revue Française de Sociologie XXXV,1994. (511-532)

[10] O. Galland, Sociologie de la jeunesse, op.cit page: 197

[11] G. Felouzis, Les étudiants et la lecture, Revue Française de sociologie, op.cit. N°XXX-4, 1994 page: 669-672.

[12] R. Bourqia, M. El Harras, D. Bensaïd, Jeunesse Estudiantine Marocaine, Ouvrage collectif, Publications Université Mohammed V de Rabat, 1995, page : 8

[13] Dilier Lapeyronnie et J.L. Marie: CAMPUS Blues, Seuil, 1992 (page 7-9)

[14] R. Bourqia, M. El Harras, D. Bensaïd, Jeunesse Estudiantine Marocaine, op. cit.

[15] - D. La peyronnie et J.L. Marie: op.cit., page: 119

[16] - D. Lapeyronnie: Ibid. Page : 124

[17]- R. Bourqia, M. El Harras, D. Bensaïd, , op.cit.

[18]- D. Bensaïd: L'Étudiant et l'institution, in jeunesse, R. Bourqia, M. El Harras, D. Bensaïd, Jeunesse Estudiantine Marocaine, op.cit. page:25

[19] - D. Bensaïd : Ibid, page: 33

[20] - D. Bensaïd : Ibid, page: 14

[21] - D. Bensaïd : Ibid, page : 71

[22]: D. Bensaïd : Ibid, Page: 32

[23] - O. Galland : Sociologie de la Jeunesse, op.cit., page (50-51)